نشاط الحركة الإصلاحية والتعليمية بمدينة ندرومة وضواحيها خلال الفترة (1900-1956م).

د. خير الدين شترة*

مقدمة: ندرومة مدينة جزائرية شهيرة ذات شهرة تاريخية كبيرة، تقع في الشمال الغربي للقطر الجزائري غير بعيدة عن الحدود المغربية وليس بينها وبين البحر إلا سبعة أميال على خط مستقيم. وبكثرة ما فيها من المباني الفنية الرائعة الخالدة، وبماضيها الفكري والثقافي والسياسي المجيد فقد تضافرت جهود الطبيعة السخية الحسناء وجهود الإنسان المبدع الخلاق لتكوين مدينة متفوقة راقية ممتعة للفكر والقلب والروح فقد بلغت أرفع مكانة في الجمال والجلال واستحقت بفضل ذلك كله أن تُدعى جوهرة مدائن تلمسان ومدينة الحسن والسحر والفتنة ومنجبة المبدعين والعباقرة.

1- التطور التاريخي والاجتماعي وأثره على العمل الإصلاحي: إن أهمية مدينة ندرومة الإستراتيجية هي التي رشحتها للعب هذا الدور الريادي في النشاط الفكري بصفة عامة والحركة الصوفية والإصلاحية بصفة خاصة، فموقعها على الطريق التجاري الرابط بين كبرى حواضر بلاد المغرب، تلمسان عاصمة الزيانيين وفاس عاصمة المرينيين والحاضرة الحفصية تونس مع باقي حواضر بلاد المغارب العلمية مثل، بجاية ومازونة وجزائر بني مزغنة وقسنطينة وغيرها من الحواضر التي تشد إليها الرحال للتتلمذ على شيوخها، جعلتها مركز استقطاب فكري وتجاري في ذات الوقت. هذا الطريق ارتاده التجار كما ارتاده العلماء والحجاج لأنه يعتبر أهم مسلك تجاري ربط بين طرفي بلاد المغرب وقبله خصوصًا بعد أن أصبح الطريق الساحلي مهدداً بالغزوات الصليبية بعد اشتداد حركة الاسترداد ببلاد الأندلس. وقد وصفها الشيخ أحمد حماني الميلي في مقال له بعنوان (حديث المتجول) عندما زارها عام 1938 بقوله: «وندرومة مدينة جليلة في طرف جبل "تاجرا" في جنوب الحصن التاريخي العظيم "هنين" الذي ضربه الأسبان كما تقع الغزوات منها في الشمال الغربي على

*- أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة محمد بوضياف- المسيلة.

بعد سبعة عشرة ميلاً وهي قديمة جداً وشكلها عربي وهندسة بنائها شرقية بها بساتين ومياه جارية وثمار يانعة... وفي شمال ندرومة في قرية (تاجرا) ولد البطل الإسلامي العظيم عبد المؤمن بن علي الذي وحَّد المغرب الإسلامي وضمَّ إليه الأندلس وأسس دولة الموحدين أعظم الدول الإسلامية في ذلك العصر وأجلّها شأناً وأرفعها حضارة وأوسعها عمراناً. ولم ينس البطل العظيم قريته التي ولد بها فقيراً معدماً من أب صنْعتُه فخار يعمل النوافيخ.. وفي قبيلة خاملة،.. فأمر في سنة 540هـ ببناء أسوارها وحصَّنها وبنى جامعها.. وما تزال آثار كبيرة بندرومة لدولته، آثار تدل على عظمة العمران العربي الإسلامي وفخامته ومن هذه الآثار بناية ضخمة مشهورة عند السكان بأنها قصر عبد المؤمن بن علي بتلك المدينة ومما يؤسف له أن يد التخريب تعمل عملها بهذه الآثار الجليلة فقد جدت الحكومة المحلية في هدم البنايات والأسرار الباقية، حتى هذا القصر لم ينج البناء على إثرها...»[1].

يصفها الإدريسي الذي عاش في القرن السادس الهجري(ق12م) بأنها مدينة كبيرة عامرة؛ آهلة ذات سوق وسور وموضعها في سند»[2]؛ وندرومة في الفترة المعاصرة كانت أيضاً محط الاهتمام الكبير، وبخاصة من سلاطين المغرب الذين استطاعوا الوصول إليها سنة 1651م[3]، هذه الأطماع المغربية تارة، والاسبانية تارة أخرى، جعلت النظام المتبع في ندرومة والمناطق المجاورة لها مرتبط بالدفاع، وبالتالي كان النظام عسكريًا أكثر منه سياسيًا.

وممّن تحدّثوا عن تاريخ ندرومة أيضاً "ليون الإفريقي" في القرن 16م: «أسس هذه المدينة الرومان قديماً عندما كانوا يحكمون المنطقة، و بنوها على بقعة واسعة في سهل، بعيد بنحو ميلين من الجبل و اثني عشر ميلاً من البحر المتوسط، و يمر قربها نهر قليل الأهمية. يقول مؤرخونا إن الرومان اختاروا لها نفس الموقع ونفس التصميم لمدينة روما، وإن اسمها مشتق من كلمة "ندّ" في لغة الأفارقة التي لها نفس المدلول في كلمة سيميليس (Similis) اللاتينية (مثيل).ما تزال أسوار ندرومة كاملة، لكن دُورها دمرت، ثم أعيد بناؤها بكيفية غير لائقة تماماً...وندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناع فيها، وينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية. يمكن أن يعتبر السكان أنفسهم تقريباً أحراراً لكونهم تحت حماية جيرانهم الجبليين، فالملك لا يستطيع أن يحصل على أي خراج من هذه المدينة لأن العمال الذين يوفدهم إليها إنما يقبلهم السكان إذ رضوا عنهم وإلا رفضوهم وردوهم على أعقابهم»[3].

كما تحدث عنها "مارمول "Marmol"[4] في القرن 17م، و"شاو[5] (shaw) في القرن 18م، و"كانال"[6] (canal) و"روني باسي(René basset)[7] في القرن العشرين، و"ألفريد بال[8] (Alfred bel) في دائرة المعارف الإسلامية...وغيرهم من جهة أخرى يرى لويس بييس (lowis piesse)[9] بأن ندرومة هي القلامة الرومانيةla kalama" ؛ وهذا غير صحيح؛ لأن لا أثر يدل على بناء روماني، كما ذكر "ماك كارتي" أنها قلامة؛ وهذا الرأي مخطئ هو الآخر لأن هذه المدينة كانت موجودة على الضفة الشمالية لوادي تافنة في الداموس من ناحية بني مسهل حيث وجدوا بها مدالية...عاصمة سيفاقس (Sigha capital de siphax)؛ ولكن هذا التأويل غلط لأن سيقة عثر عليها من طرف علماء الآثار وتوجد في مكان آخر . وهناك تضارب آراء مختلفة يطول ذكرها.

ويرى ابن خلدون بأن:« مدينة ندرومة أخذت اسمها من قبيلة ندرومة التي هي من بطون الكومية. أما الكومية الذين يعرفون بصطفورة لهم بطون ثلاث: ندرومة- مغاوة- بنو بلول وفروعهم كثيرة منهم: بنو عابد قوم عبد المؤمن بن عليّ وكومية يعرفون بسطفورة بنو فاتن ابن قصيت أو تمزيت ابن دارس بن راهق ابن مادغيس الأبتر وفي عهد الأدارسة في القرن التاسع الميلادي(9م) كانت مدينة تدعى فلوسن، ولم تكن تحمل اسم ندرومة؛ وكانت آنذاك عاصمة النواحي المجاورة لها التي أصبحت تحمل في القرن الخامس باسم تارة[10]...وتوارة هي مجموعة من القبائل الكومية لتلك الناحية؛ يبدو أن العرب أدخلوا هذه القبائل إلى الإسلام على عهد الأدارسة غير أننا لا نعرف شيئاً؛ كيف تعرّب هؤلاء البرابرة؛ وكيف تقبلوا الفتح الإسلامي والدين الإسلامي ربما كان يوجد بهذه المدينة مركز ديني من الخوارج الصفرية في القرن الثامن الميلادي»[11] لتصبح هذه المدينة حتّى القرن الحادي عشر(11م) مدينة تتميز بمكانة مرموقة في ميادين شتى إبان الحضارة الإسلامية.

بالإضافة إلى هذه الشهرة الطبيعية والتاريخية اشتهرت ندرومة شهرة علمية أخرى بكثرة ما أنجبت من العلماء ورجال الدين وحُفاظ الذكر الحكيم، قال عنها أحمد حماني عام 1938: «اشتهر أهل ندرومة بالإقبال على التعليم، والكرع من مناهل الثقافتين العربية والفرنسية، وقد ملئوا وظائف الحكومة خصوصاً الترجمة بالمغرب الأقصى والجزائر، ولا ننسى أن بطل الجزائر الحديث ابن رحال من ندرومة، وبها ثاو الآن إلى جنب الشيخ محمد بن سليمان بزاويته، ومن جَهْلنا

بعظمائنا أن قبر ابن رحال الآن لا يزار إلا للبركة لا لتقدير الرجل والإقرار بخدماته وفضله، ولقد كثر أخذ التراب من قبره وقبر صاحبه للبركة وهل من التقدير والاحترام للميت نبش قبره وإزعاجه ؟ وهل الإنكار على فعل مثل هؤلاء من الجاهلين يُعد إنكاراً للأولياء وكفراً بالصالحين؟... وقبل أن نختم هذه الكلمة لا بأس من الإشارة إلى أمر مهم هو أن أهل تلك النواحي من ندرومة والغزوات في الجبال يشابهون في عاداتهم وأخلاقهم ولهجاتهم قبائل الخضرة من أهل الميلية وجيجل والجبال التي بين سكيكدة وجيجل، فهل بينهم من صلة وهل هؤلاء من أولئك أم العكس؟»[12]، وقد أجابه مبارك الميلي عن ذلك بقوله: «سكان سواحل عمل قسنطينة الأصليون هم من قبيلة كتامة، وسكان سواحل عمل وهران من قبائل بربرية أخرى غير كتامة، ولعل الذي جعل الفريقين متشابهين أمران أحدهما المناخ والآخر غلبة الأصل البربري بهاته السواحل على العرق العربي، غلبة ضَعُف معها التأثر باللهجة العربية فكانت عربيته رديئة بالقياس إلى عربية الصحراء»[13].

وفي بداية العهد الاستعماري حاول أهالي ندرومة الانضمام إلى الأتراك ثم بعد ذلك حاولوا التقرب من دولة الأشراف المغربية لكنهم قرروا الانضمام في الأخير إلى الأمير عبد القادر سنة 1834م على يد نائبه الحاج مصطفى، الذي عُين والياً عليها، ولقد ذهب الأمير عبد القادر بنفسه فيما بعد إلى ندرومة داعياً سكانها إلى الجهاد والالتفاف حوله لمواصلة القتال ضد الجيش الفرنسي[14] وقابله الندروميون هناك بحرارة ووقفوا إلى جانبه، وبعد توقيع معاهدة دي ميشال 1834م أضحت ندرومة تابعة بمقتضاها إلى دولة الأمير وبذلك سلِمت ندرومة ولو مؤقتاً من الاحتلال الفرنسي، وبدأ الأمير في تثبيت سلطته في هذه المنطقة، فعين سنة 1839م حمزة بن الرحال إماماً وقاضياً على مدينة ندرومة، ولما تراجعت فرنسا عن بنود معاهدة التافنة واشتعلت الحرب من جديد بين الأمير وقوات الاحتلال بقيادة الجنرال"بيجو" شهدت منطقة تراراة بصفة عامة ومدينة ندرومة بصفة خاصة معارك بين الطرفين، تمكن من خلالها الجيش الفرنسي من احتلال مدينة ندرومة في 08 مارس 1842م وأسر 06 رهائن من بينهم حمزة بن رحال، وقد حظي هذا الأخير بثقة ومكانة مميزة من طرف الأمير، فبعد توقيف القتال بين الأمير والجنرال لامورسيار يوم 1947/12/23م قرب سيدي إبراهيم بنواحي ندرومة، كلف الأمير الحاج حمزة بن الرحال أغا ندرومة بالنيابة عنه في بيع أثاثه وآلاته[15]. وفي سنة 1843م رجع الأمير إلى ندرومة وحاصرها ووقع

اشتباك بينه وبين جيوش الضابط "بيدو" في باب تازة (قرب ندرومة على جوانب الطريق المؤدي إلى مغنية)، وفي سنة 1844م بعد معركة إيسلي، أسست فرنسا بمرسى الغزوات مركزاً عسكرياً تحت إشراف الكولونيل مونتانياك وفي سنة 1845م. تكبّد هذا الأخير خسائر فادحة وانهزامًا مخزياً بضريح سيدي إبراهيم الذي يبعد عن ندرومة ببضع كيلومترات من جهة شمال غربها حيث أن فرقة له قضي عليها بأكملها وكانت جيوش الأمير تمر كثيرا بندرومة وتتردد إليها من حين إلى آخر، وفي سنة 1880م أصبحت ندرومة بلدية مختلطة تحت الحكم الكولونيالي المباشر، وأصبح رئيس جماعة الأهالي يحل محلّ آغا العرب الذي يعمل عادة تحت تصرف السّلطات الفرنسية.

ومنذ أن أُعلن عن مشروع قانون التجنيد الإجباري إلى غاية إقراره، والندروميون في حالة ثورة رفض واستنكار دائمة، وعبّر عن هذا النشاط الوطني المتميّز ما قام به ابن المنطقة الحاج محمد بن رحال، الذي سعى من أجل إلغاء هذا المشروع كونه جاء ليأخذ أعز ما تبقى لهؤلاء الأهالي وهو فلذات أكبادهم، ومن مظاهر الرفض التي جسّدها الندروميون تنظيمهم لمظاهرة ضخمة ضمّت أهل المدينة وضواحيها وحتى سكان البادية، ولقد كان لهذه المظاهرات وقع كبير داخل وخارج الجزائر، رغم محاولات السلطة الفرنسية تطويقها باستنفار عسكري غير مسبوق إضافة إلى الاستنجاد ببعض رجال الطرق الصوفية الخاضعين لإدارتها.

ومنذ ذلك الحادث صارت ندرومة تُعرف "بالبلدة الصلبة". من جهة أخرى شكلت جريدة الحق الوهرانية وفداً من خمسة أعضاء ترأسه محمد بن رحال قاصداً باريس لتقديم مطالبه، ومنها رفض قانون التجنيد الإجباري على الجزائريين، هذا الموقف من طرف أهالي ندرومة يُبرز من دون شك وطنية وقوة أهل ندرومة الذين رفضوا الوضع السائد، وانتفضوا من أجل الحفاظ على دينهم وهويتهم، بحيث عبروا عن ذلك بكل ما أتيح لهم من وسائل للمقاومة ولعل أبرزها هو الهجرة[16]. وقد أنذرت مجلة فرنسية محافظة "النتائج الكبيرة التي قد تنجم عن موقف الجزائريين، ولا سيما عن اختفاء الشباب المتأثرين بالتجنيد،- ثم تعجبت المجلة مرددة-: "ذلك هو الخطر، تلك هي الصعوبة"[17]، من جهة أخرى نصحت جريدة الحق الوهراني كل الشباب الجزائري بالهجرة حتى يتقوا التجنيد في صفوف الجيش الفرنسي، ولهذه النصيحة هاجر حوالي ألف شاب مجند[18].

ومن خلال الملفات الموجودة بأرشيف ما وراء البحار[19] تبيّن أن أعداد المهاجرين الندروميين إلى سوريا بين سنتي (1910-1912)، لم يتجاوز ثلاث عائلات كبرى، لم يرجع منهم بين سنتي

(1912-1918) إلا عائلة واحدة، والملاحظ أن جداول الإدارة الفرنسية استثنت الحديث عن أعداد الأطفال والنساء، وإذا ما حاولنا ذكر كل أعداد مهاجري ندرومة مع ضواحيها منذ بداية فكرة الهجرة، فإن التعداد سيتجاوز اثني عشرة عائلة(12) لم يرجع منها إلا أربع عائلات.[20]

2- تطور العمل الإصلاحي في ندرومة: إن منطقة ندرومة غنية بالعلماء في مختلف العهود، خدموا وطنهم بخدمة الإسلام، والقرآن، واللغة العربية، وكانوا أحسن معين لنشاطات الإصلاحيين والعلماء الذين قدموا إلى ندرومة. وفي حديثنا عن تطور العمل الإصلاحي بالمنطقة، فإن أكثر الجهود الإصلاحية والتربوية تأثيرًا في المجتمع الندرومي هي تلك التي قدمها رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولعل ذلك إنما يعود إلى:

- انتظام العمل الإصلاحي لدى رجال الجمعية واستمراريته، كون الجهود الإصلاحية السابقة لنشأة جمعية العلماء إنما كان تعثّرها بسبب انقطاعها ومحدودية تأثيرها وانعزالها .

- كثافة النشاطات الإصلاحية وتنوعها (جمعيات- نوادي- مدارس حرة- مساجد حرة-صحافة- محاضرات...).

لقد استطاعت جمعية العلماء بعد سنوات قلائل أن تقوم بجهود ضخمة في هذا الميدان، ذلك أن عملها الإصلاحي الفعلي بالمنطقة تأخر إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية (1931-1946) بسبب:

- تأخر اهتمام الجمعية بالمنطقة الغربية للقطر الجزائري إلى غاية تأسيس دار الحديث بتلمسان، رغم المجيء المبكر للشيخ البشير الإبراهيمي إلى عمالة وهران (جانفي 1933).

- هيمنة الطرقية على عامة الناس، حيث كانت تحرضهم ضد أي نشاط إصلاحي يتبناه العلماء الذين كانوا يصفونهم بالوهابيين، وأشهر هذه الطرق بالمنطقة (زاوية بن عمر- العيساوة- القادرية- السليمانية- الهبرية)[21].

- التضييق الاستعماري على حركة الأفراد الذين ترسلهم الجمعية للوعظ والإرشاد والتدريس بالمنطقة، ومن ذلك عدم الترخيص لهم بإلقاء الدروس بمساجد المدينة.

«فالعمل الإصلاحي بندرومة لقي مشقة عويصة في الدخول إليها رغم قربها من تلمسان التي كان يقيم بها رئيس الجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي، ويلقي محاضراته الدينية والثقافية المفيدة، وذلك بسبب كثرة زواياها والطرق الصوفية من أهلها وزارها عبد الحميد بن باديس في السنوات الأولى لظهور الجمعية كما زارها الشيخ البشير الإبراهيمي وغيرهما من قادة الحركة الإصلاحية

وألقوا فيها دروسا عامرة لم تكن لها نتائج محمودة في الساعات الأولى ولكن الله ادخر تلك النتائج لما بعد الحرب العالمية الثانية حيث انخرطت ندرومة بقضها وقضيضها في جمعية العلماء، وأصبحت في طليعة المدن التي يعتز بها الإصلاح ويرفع الرأس عاليا)[22].

فقد زارها الشيخ ابن باديس بعد ظهور جمعية العلماء عام 1931م، فألقى فيها درسًا قيّما موضوعه(تعلّموا، تحابوا تسامحوا)، واستغرق في تحليل هذه الكلمات ساعة من الزمن، فأُعجب الناس بعلمه وفصاحته، وخرجوا من المسجد وهم يتمنون لو دام الحال كذلك حتى الصباح، وقد قيل أن الحاكم أرسل ترجماناً لحضور درسه ونقل معانيه إليه، ولما أخبره الترجمان عما استطاع أن ينقله إليه، وأنه عبارة عن درس دين وأخلاق، أجابه الحاكم: «أنتم العرب كلكم سواء» ويقصد بذلك أن الموثوق به لا يُؤتمن. ثم أن الحاكم قد أَلِف المهرجانات التي تقام بواسطة أصحاب الطرق الصوفية المتعددة في ندرومة فظن أن احتفاء جمهور ندرومة بمقدم الإمام لا يعدو أن يكون واحداً من اجتماعات الطرقيين[23].

وفي أول جانفي 1933م حلّ الشيخ البشير الإبراهيمي بتلمسان مما أدى إلى انتعاش حركة الإصلاح بالمنطقة ككل وهو ما اضطر الوالي العام بالجزائر أن يكتب إلى والي وهران بعد أقل من أسبوعين من وصول الإبراهيمي إلى تلمسان يطلب منه الحضور لاجتماع طارئ في الجزائر قصد دراسة عدة مسائل منها الدعاية التي تقوم بها جمعية العلماء في الغرب الجزائري والإجراءات الكفيلة بمحاربة هذه الحركة التي تتطلب انتباه السلطات العامة في وثيقة مؤرخة في 13 جانفي 1933م تحت رقم 310.. وبعد منعه من إلقاء الخطب والدروس في المؤسسات الدينية والإسلامية قام الإبراهيمي بربط علاقات مع الجمعية القرآنية بتلمسان التي يبدو أنها تأسست على إثر زيارات ابن باديس، إذ أن هذه الجمعية هي التي دعت الإبراهيمي لتولي رئاستها[24].

وبعد توليه رئاسة الجمعية قام الشيخ الإبراهيمي بإرسال الشيخ عبد الباقي بن الشيخ الحسين لكي يتولى التمهيد للحركة الإصلاحية في ندرومة، فاستقبله الناس بالبشر والترحاب وأولوه قدراً مناسباً من التقدير والاحترام، وانظموا إليه واستمعوا له حيث التف حوله الشباب والكهول، وأصبح للإصلاح موطأ قدم في المدينة ومحط اهتمام الندروميين الذين بادروا إلى تهيئة وسائل العمل التي كان من أهمها تأسيس مدرسة يأوي إليه صغارهم ومسجد حر يرتاده كبارهم[25]. وعندما تمّ بناء مدرسة عبد المؤمن بن علي ومسجد ندرومة من طرف رئيس الجمعية الدينية قام

الشيخ الإبراهيمي بتدشينهما في 11 سبتمبر 1949م، حيث شكر الأمة الندرومية على الإقبال الذي ظهرت به في ميدان الجد والعمل ونبذ روح التواكل والكسل، وهو الذي أطلق على المدرسة اسم عبد المؤمن بن علي وعيّن لإدارة المدرسة والإرشاد والوعظ في مسجدها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، وهو أحد أساتذة دار الحديث بتلمسان، الذي قاد حملة دروس الوعظ الديني في ندرومة منذ هذا التاريخ إلى غاية هجرته إلى المغرب الأقصى عام 1956، فحسب قائمة الوعاظ لشهر رمضان، المنشورة سنوياً بجريدة البصائر، نجد أن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور قد تكفل بالتدريس والإصلاح التربوي والتعليمي من أول رمضان له بندرومة في شهر جوان 1950 (رمضان 1369هـ) إلى آخر رمضان له بها في أفريل 1955(رمضان 1374هـ) [26]، حيث كان رقم التليفون المستخدم في قضية الصوم والإفطار هو رقم 028، ولم يتسنى لنا معرفة مالك هذا الرقم الهاتفي حينها.

ويعتبر تاريخ الجمعة 4 صفر 1372هـ الموافق لـ 22 أكتوبر 1952م أول صلاة جمعة حرة أديت بندرومة وكان ذلك في مسجد السياح «وقد أحدث ذلك فرحاً وسروراً لكافة المؤمنين والمؤمنات الحريصين على أداء الشعائر الدينية والذين اضطروا بعد صدور فتوى جمعية العلماء في السنة الماضية إلى مقاطعة الإمام المعين من طرف الإدارة المسيحية الاستعمارية»[27]، وزيادة في حرص الجمعية على ترسيخ أقدامها بالمنطقة، فإنها كانت تعمد في كل مرة إلى إرسال بعض رجال الإصلاح إلى ندرومة، فقد جاء في بلاغ من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يُعلن عن سفر المعتمدين إلى كل جهات البلاد الجزائرية عام 1954 هذا نصه: «يعلن المكتب الدائم لجمعية العلماء أن المجلس الإداري قد انتدب طائفة مختارة من العلماء العاملين للتجول خلال شهر أوت وسبتمبر 1954م في سائر جهات القطر الجزائري.. وقد زار وفد من العلماء المصلحين مدينة ندرومة يرأسه الشيخ العباس بن الشيخ حسين»[28]، كما قام رجال جمعية العلماء خلال شهر أوت من عام 1954م بجولة موفقة في مدينة ندرومة، وجاء في ملخص نشاط الجمعية بجريدة البصائر ما نصه: «أما مدن مستغانم وندرومة وتلمسان ووهران فقد زارها وخطب في جموعها وفد مؤلف من الشيوخ: (محمد خير الدين– نعيم النعيمي– موساوي زروق)، هذا الأخير هو أحد أعضاء البعثة العراقية الناجحين».

أما من الناحية التنظيمية فحسب أشهر الروايات أن أول شعبة لجمعية العلماء بندرومة تأسست في أكتوبر من عام 1946م– وهو قول لم نتمكن من إثباته أو نفيه لغياب الوثائق الدالة

على ذلك في حدود ما اطلعنا عليه- غير أن جريدة البصائر[28] نشرت في مارس 1949 قائمة بأسماء الأعضاء في هذه الشعبة مرفوقة بمهامهم الإدارية داخلها، وكان عنوان هذا الإعلان عبارة (تجديد شعبة ندرومة)، والتجديد يوحي بأن الشعبة كانت قائمة قبل هذا التاريخ، وبعد تفحصنا لكل أعداد السلسلة الثانية من الجريدة من العدد الأول الصادر في يوم الجمعة 25 جويلية 1947م إلى غاية هذا التاريخ لم نعثر على ما يوحي بوجود شعبة لجمعية العلماء بندرومة.

وعلى كل فإنه بعد تجديد الشعبة في مارس 1949 أسفرت عن التشكيل الآتي[29]: السيد محمد بن رحال(الرئيس الشرفي)- السيد الحاج بن أحمد غزالي(الرئيس العامل)- السيد أحمد طراح الزرهوني(نائب)-السيد المختار درار(الكاتب)- السيد أحمد بونخالة(نائب)- السيد محمد مسلم (أمين المال)- السيد عبد القادر غرناطي (نائبه)- السيد أحمد الزرهوني (المراقب). والأعضاء السادة: الحاج بن عمر غزالي، المقدم صنهاجي، حامد رحال، الميسوم داهور، محمد عزوز، محمد بسام عبد القادر قدار، دريوش بونخالة، الطاهر إبراهيمي، محمد عامر. ثم تجددت شعبة ندرومة بعد هذا التاريخ أربعة مرات حيث كان آخر تجديد لها خلال شهر جانفي 1955م، والمميز فيها أن الحاج محمد بن رحال سيبقى يشغل منصب الرئيس الشرفي إلى أن حلّت نهاية عام 1955م، وكان قبله قد عين رئيساً شرفياً وعاملا في نفس الوقت في آخر تجديد للشعبة خلال جانفي من نفس العام.

أما فيما يتعلق بعضوية المناصب الأخرى فقد كانت تتغير تبعا لكل تشكيل جديد والمهم فيها هو أن الشعبة كانت بعد كل تجديد تتطعم بأعضاء إصلاحيين جدد، من جهة أخرى فإن بعض العائلات الشهيرة بندرومة كـ(الرحالي- الغزالي- الزرهوني- الصنهاجي- الجباري الغماري- القداري- الدهوري- المصمودي- البسامي- الغرناطي- الميدوني - الإبراهيمي الجزولي - الركابي- العزوزي- الطالبي- المسلمي- الدراري،... إلخ وغيرها كثير..) بقيت طوال هذه الفترة تحافظ على مكانتها في الشعبة وتعمد دائما إلى تغذية الشعبة والعمل الإصلاحي ككل بأسماء جديدة.

وخلال شهر جانفي 1950م ضمت الشعبة الجديدة: (الحاج أحمد غزالي رئيساً ومحمد الأمين بسام نائباً له، والحاج بن عمرو غزالي أميناً للمالية، وينوبه أحمد بونخالة والطاهر الإبراهيمي كاتبا وينوبه المختار الدرار، والميسوم الداهور مراقبا، ومن أعضاءها الجدد: أحمد الجزولي- عبد القادر

الخياط- يحي الميدون- بن عمرو الصمود[30]. وبعد ثلاث سنوات من العمل الإصلاحي في (أفريل 1953) تمّ انتخاب شعبة جديدة ضمت (الحاج بلحاج رئيساً وينوبه محمد البسام- الطاهر الإبراهيمي كاتباً وينوبه عبد القادر نورين -الحاج بن عمرو غزالي وينوبه محمد بونخالة، ولأول مرة يرقى السيد الميسوم الداهور إلى منصب المراقب، كما عرفت هذه الشعبة الجديدة أعضاء جدد هم (الطالب محمد الركاب- محمد الصنهاجي -حمزة بن رحال)[31].

وبعد أقل من سنة تجددت شعبة ندرومة في مارس 1954 من السادة الآتية أسماؤهم: الحاج بن عمرو غزالي رئيساً حيث كان يشغل في الشعبة السابقة أمينا للمالية ينوبه في ذلك حامد بن رحال، والطاهر الإبراهيمي كاتباً عاماً ينوبه أحمد بونخالة، والحاج بلحاج غزالي أمينا للمالية ينوبه محمد البسام، والميسوم الداهور مراقبا.. وفي هذه الشعبة تم استحداث منصب نائب المراقب والذي كان من نصيب محمد بن عزوز، من جهة أخرى تم تقليص عدد الأعضاء المستشارين التي لم تعرف أسماء جديدة[32].

وبعد الاضطرابات الأمنية الكبيرة التي عرفتها المنطقة بسبب اندلاع الثورة التحريرية الكبرى في نوفمبر 1954 وما تبعها من تقليص للحريات وللعمل الإصلاحي ككل، وما انجر عنها من اعتقالات واعتداءات على أعضاء الشعبة ورجالات الإصلاح حاولت مجموعة الإصلاح والتربية بندرومة في مطلع عام 1955م هيكلة الشعبة التي انبثقت عن قائمة الأعضاء الآتيين: محمد بن رحال رئيساً(لأول مرة) ينوبه محمد البسام، والطاهر الإبراهيمي كاتباً، ينوبه محمد بن عزوز، وبلحاج غزالي أمينا للمالية ينوبه الميسوم الداهور، وبن عمرو غزالي مراقباً، كما أستحدث منصب جديد هو المرشد العام وتولاه السيد عبد الوهاب بن منصور، وعرفت قائمة الأعضاء المستشارين انضمام عضو جديد هو السيد عبد السلام بن الأزعر[33]. وفي هذه المرحلة توقف نشاط شعبة جمعية العلماء بسبب التطورات المؤثرة للثورة الجزائرية وانضمام فصيل من رجال الإصلاح إلى ركاب الثورة والعمل المسلح يضاف إلى ذلك قيام الاحتلال بحل كل المنظمات الوطنية، واعتقال أغلب أعضائها بما فيها إصلاحيي مدينة ندرومة والمتعاطفين معهم، فتجمد كل شيء.

لقد اعتبرت شريحة كبيرة من المجتمع الندرومي أن قضية العلماء المسلمين قضيتهم وانتصارها هو انتصارهم، فاندفعوا في العمل فيها ودعموها بجهودهم المادية والمعنوية، ولم يكن هذا العمل مقتصرا على الندروميين المقيمين فيها بل كان منتشرا أيضاً لدى الندروميين المقيمين خارجها

في المدن والقرى الجزائرية بل حتى لدى المهاجرين منهم خارج الجزائر، والذين تجلى دعمهم في جانبه المادي، فقد كانوا ملاذ الجمعية بندرومة في الأزمات. فتبرعات الندروميين وأمثالهم هي التي مكنت رجال الإصلاح من نجاح مشروعهم، قال عنهم مؤسسي الشعبة: «كانوا يمدون الشعبة والجمعية من ورائها بكل ما يحتاجانه من المال حيث كان الندروميون يثقون بها ثقة كاملة، فلولاهم ما استطاعت الجمعية أن تقول كلمتها أو تنجح في مشروعها. فقد أظهروا العمل الإصلاحي بعمالة الغرب ككل بفضل دعايتهم وحماستهم ومساندتهم المادية والمعنوية».

فعلى سبيل المثال لا الحصر جاء في تقرير مالية معهد ابن باديس في حسابها للسنة الأولى(1947-1948) أن ندرومة تبرعت بـــ500 فرنك، وفي دخل السنة الثانية(1948-1949) تبرع مجموعة من أعيان المنطقة وإصلاحييها بما يفوق 36.000 فرنك ويكفي أن نقول أن كل من السادة غزالي أحمد بن الحاج- زرهوني محمد بن بومدين- رحال حمزة بن الحسين- غزالي بن عمر بن علي والداهور الميسوم بن محمد- ورحال الحاج محمد بن حمزة) كانوا مصنفين لدى الجمعية ضمن حماة المعهد[34]. أي الذين يستند عليهم المعهد في كل الظروف، وبصفة دائمة.

وخلال سنتي 1950-1951م تبرع مؤيدو الإصلاح بندرومة الآتية أسماؤهم: الحاج محمد بن رحال- غزالي أحمد بن رحال- زرهوني محمد بن بوفايق- رحال حمزة- الداهور الميسوم- غنيم أحمد- المنور؟- جباري مصطفى بما مجموعه 32.500 فرنك[35]، وفي نفس الفترة تبرع عبد الوهاب بن منصور لوحده بما قيمته 20.700 فرنك[52]، كما تبرع الشعب الندرومي خلال أزمة الجمعية المالية عام 1955م بواسطة السيد الحاج غزالي بن عمرو بـــ15.000 فرنك[36]، وقد تجسّد دعمهم المادي للعمل الإصلاحي في مجالات شتى كمداومتهم على شراء جريدة البصائر دعما لها حتى تستمر في مهمتها الإصلاحية، وهناك مجال آخر برز فيه الدعم المادي لأهالي ندرومة، وهو احتفائهم الكبير وكرمهم العظيم بضيوف ندرومة من معتمدي الجمعية الإداريين، وكذا وُعَاضها ودعاتها. «حيث كان السكان يُقبلون على التأييد والمساندة بدافع الفطرة والسجية التي فاضت كرماً وجوداً. فقد كانوا يؤيدون جمعية العلماء بأموالهم وأنفسهم رغم قلة ما بأيديهم ولم تقم الجمعية بحركة من حركاتها الموفقة في جهة من جهات القطر إلا وكانت ندرومة في طليعة المؤيدين بأموالها ووفودها»[37].

وعندما افتتحت المدرسة الجديدة بندرومة عام 1954م، ذكر الحاج أحمد غزالي ذلك منتشياً: «وبعد ما أتمت اللجنة المالية عملها بدأ الندروميون يضيّفون إخوانهم وقد أظهروا في هذا اليوم- كما يظهرون في غيره- كرماً حاتمياً...» [38].وكان قبلها قد كتب الشيخ باعزيز بن عمر عن هذا الكرم في افتتاح مدرسة ندرومة القديمة قائلا: «وإن القلم ليعجز عن تصوير مبلغ ابتهاج هذه الجماهير التي حداها سائق العلم من أطراف عمالة وهران وأنحائها ومن الغرب فلبّت نداء الداعي مسرعة إلى تأييد العلم والعلماء، وحشرها المثوب في صعيد واحد.. وما أجمل منظر هذه الجموع المحتشدة أمام مدخل المدرسة والأستاذ الرئيس(البشير الإبراهيمي) يخترق صفوفها المتراصة وهي مهللة ومكبرة... ولما جاء دور التبرع فرأينا ما سرّ وأبهج من أمثلة التعاون على البر والتقوى وإقامة قواعد هذه النهضة على أمتن أساس.. ولم يكن لدينا غريباً ما أظهره الندروميون من الأريحية والتأييد...» .[39]

3- ملامح من النشاط الثقافي والتعليمي للحركة الإصلاحية:

أ- الجهود التعليمية والثقافية للحركة الإصلاحية: إن جهود جمعية العلماء في نشر التعليم العربي ورعايته بندرومة، والدفاع عنه تعتبر من أهم الجهود الوطنية أثراً وأكبرها فعالية، فقد ساهمت مساهمة فعالة في بعث النهضة الثقافية العربية ومحاولة إحياء الثقافة العربية الإسلامية التي دأب الاحتلال طوال قرن ونيف على محاولة محوها من الوجود[40]، وذلك عن طريق مدرستها ومسجدها الحر اللذين أنشأهما بأموال الندروميين. وقد استطاعت جمعية العلماء بعد سنوات قلائل أن تقوم بجهود ضخمة في هذا الميدان، وتحقق إنجازات كبيرة على مستوى الوطن كله، أثارت الإعجاب عند أصدقائها، والفزع والخوف لدى دولة الاحتلال وأعدائها[41].

ومنذ ديسمبر من عام 1948م عزمت الجمعيات الإصلاحية في ندرومة على شراء إسطبل للبيع كان يملكه الأخوان مصطفى والطاهر بن إبراهيم، حيث وضع الحجر الأساسي فيه رئيس الجمعية الدينية محمد بن رحال نهاية عام 1948م[42]، وفي ذلك يقول الحاج أحمد غزالي «كان يوم وضع الحجر الأساسي لمدرستنا المباركة من الشهر الماضي (نوفمبر 1948) من أعظم الأيام وأسعدها في تاريخ ندرومة حيث وفقنا الله إلى بناء مدرسة للتربية والتعليم، وكان واضع الحجرة الأولى هو الشيخ الحاج محمد بن رحال المتقد غيرة الملتهب حمية، المملوء غبطة وسروراً ومحبة وحبوراً رغم تجاوزه سن الثمانين من عمره. فكان كل همه تكوين مدرسة عربية فحقق الله رجاءه

بتيقظ أهالي ندرومة وقيامهم بواجبهم نحو دينهم ولغتهم، فهي وإن لم تكن من اللاحقين المسرعين، فتداركت ما فاتها في الميدان العلمي والإصلاحي مُظهرة تعلّقها بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين منخرطة في سلكها لما تعتقده أن لا سبيل إلى السعادة إلا سبيلها ولا طريق إلا كطريقها والحمد لله الذي هدانا لهذا، وعليه الاعتماد وبه الاستعانة والاسترشاد، كما نشكر فضل الأستاذ الرئيس الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أحيا شعورنا وبعث روح العمل والتيقظ فينا جزاه الله خيراً، ونهيب بأبنائنا البررة الذين هم في الخارج أن يستشعروا هذا الواجب ويقدروه قدره بالتأييد والتشجيع.. وقد بعث إلينا السيد جعفر بن رحال الصيدلي في بني صاف مائة ألف فرنك..» [43].

وقد وقع افتتاح هذه المدرسة في 1949/09/11م بعد سنة من الأشغال والترميمات وهذا بحضور رئيس جمعية العلماء الذي أسماها مدرسة عبد المؤمن بن علي إحياء لهذا الاسم التاريخي العظيم، وعيّن مديراً لها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور[44]، وقد وصف الشيخ باعزيز بن عمر حفل التدشين بقوله: «مدرسة ندرومة بناية ضخمة تسر الناظرين، وتريك بشكلها الهندسي البديع، آثار هذه النهضة العلمية المباركة تنطق فتفصح عن جهود الأمة المبذولة في حقلها وأعمال جمعية العلماء التي امتدت في الوطن فعمت ربوعها كلها، وأشرقت كالشمس في كل ثغر من ثغور الإسلام بهذه الديار ثم تجسمت فكانت ما يسمى اليوم النهضة الجزائرية ... وإن أمة تنشئ هذا الإنشاء وتقبل على هذا البناء والتشييد يمثل هذه الصورة لخليقة بالحياة والانبعاث والسير إلى الأمام... تلك هي مدرسة ندرومة التي احتشدت جموع غفيرة حولها يوم الأحد 11 سبتمبر الأخير تنتظر مقدم رئيس جمعية العلماء... وإن القلم ليعجز عن تعويض مبلغ ابتهاج هذه الجماهير التي حداها سائق العلم من أطراف عمالة وهران وأنحائها ومن المغرب فليت نداء الداعي مسرعة إلى تأييد العلم والعلماء... وما أجمل منظر هذه الجموع المحتشدة أمام مدخل المدرسة، والأستاذ يخترق صفوفها المتراصة وهي مهللة ومكبرة فيتناول مفتاح المدرسة فيفتحها باسم الله ثم باسم جمعية العلماء واسم الأمة الجزائرية جمعاء... دخلنا قاعة المدرسة الفسيحة فأخذ المدعوين مقاعدهم فيها وقد اكتظت مدارجها وجوانبها وأقسامها بهم جميعا، فافتتح الاحتفال بآي من الذكر الحكيم، وتقدم الشيخ الوقور رئيس الجمعية الدينية محمد بن رحال، فرحب بالأستاذ الرئيس ترحيب الروض بالطل وأثنى على جهود جمعية العلماء ثناء عاطرا، ووقفى عليه رئيس شعبة ندرومة السيد الحاج غزالي بإلقاء كلمة متزنة تعبر تعبيرًا صادقاً عما يكنه أهالي ندرومة في تقوسهم من حب العلم

والعلماء والعض بالنواجذ على مبدأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين... وشارك في الاحتفال كذلك تلميذان ولد وبنت فكانت مشاركتهما بما نطقا به لطيفة رائعة جميلة تشف عن مستقبل باسم زاهر لهما ولأمثالهما من أبناء هذا الجيل... وهنا تقدم الرئيس الجليل فخاطب المدعوين على اختلاف طبقاتهم بلغة حية سهلة يتذوقها الجميع، وهز شعورهم أجمعين بما أفاض عليهم من بيانه العذب الساحر وإرشاداته الغوالي..[وبعد التبرع] انتهى القسم الأول من الاحتفال عند الزوال وتناول المدعوون طعام الغداء في ساحة المدرسة الفسيحة في جو من الابتهاج والسرور بما ظهر من نتائج التعاون السارة بين الإخوان العاملين، وما تم من تشييد هذه المدرسة التي تفضل الرئيس فدعاها مدرسة عبد المؤمن بن علي... واستأنف الاحتفال على الساعة الثالثة بعد الزوال، وتكلم الرئيس مرشداً داعيًا، إلى مواصلة العمل وتنمية المشروع كما تكلم الشيخ السعيد الزموشي وبعض الطلبة»[45]

خلال هذه الفترة شمل الإصلاح المدينة كلها تقريبا وأقبل السكان ذكورا وإناثا صغارا وكبارا على جمعية العلماء والانتظام في سلكها وأخذوا يؤيدونها بأموالهم وأنفسهم رغم قلة ما بأيديهم ولم تقم الجمعية بحركة من حركاتها الموفقة في جهة من جهات القطر إلا وكانت ندرومة في طليعة المؤيدين بأموالها ووفودها، وبلغ من شدة الإقبال على التعليم وسماع دروس الإرشاد أن ضاقت المدرسة والمساجد على رحابتها بالتلاميذ وبالمستمعين فكان لابد من التفكير في توسيع المدرسة وإنشاء مسجد حر ليس للمستعمرين عليه من سبيل[46].

فبعد أن ضاقت المدرسة وأضحت لا تستوعب كل المرتادين، قررت الشعبة برئاسة بلحاج غزالي شراء الفندق البلدي الذي عُرض للبيع، وكان محاذيا للبناء القديم للمدرسة، وعندما تمت الصفقة تم بناء محله مسجدا كبيرا ومرافق أخرى تعمل لفائدة المدرسة والمسجد[47]. حيث أرفق بهما ثلاثة أقسام وداران لسكنى المعلمين ومقهى و5 دكاكين، وتعاون الندروميون تعاونا كبيرا على البناء ببذل الأموال والتطوع للعمل بالذوات حتى تمّ وجاء على أحسن ما ينبغي أن يجيء عليه من اتساع وتوفر على شروط الصحة.

«...وحدد يوم الأحد 12 شوال 1373هـ الموافق لـ13 جوان 1954م[48] موعدًا لافتتاحه وقد قامت الشعبة باستدعاء جميع من آنست فيهم الغيرة على المشاريع العلمية والدينية للحضور في هذا الحفل كما نظمت جولات بالسيارات إلى سائر مدن العمالة الوهرانية وقراها لاستدعاء

الشعب مشافهة...[49] ووضع نظام داخلي دقيق للإشراف على سير الحفلات من أولها إلى آخرها، قام به شباب ندرومة بتعاون مع إدارة المدرسة والشعبة... وكانت بداية الاحتفالات يوم الجمعة 10 شوال 1373هـ إذ في ذلك اليوم وصل المسؤول العمالي الشيخ السعيد الزموشي فألقى بالمدرسة الجديدة درسا قرآنيا حافلاً وفي صباح السبت وقع اجتماع سنوي عظيم تحدث فيه الشيخ السعيد أيضاً وجمعت فيه تبرعات طائلة وبعد صلاة العصر كان الحديث موجها إلى الشبان خاصة، وقبل صلاة المغرب وصل وفد المجلس الإداري المتركب من الرئيس الثاني فضيلة الأستاذ العربي التبسي والأستاذ عبد اللطيف السلطاني أمين المال ومدير المركز يصحبهما السيد عبد القادر بن زيان والأستاذ مصباح الحويذق» مع عدد من العلماء المرشدين منهم السعيد الصالحي، عبد القادر الياجوري، محمد الحسن فضلاء وعدد آخر من المعلمين والمديرين وممثلي الجمعيات والشُعب، فكان احتفالاً لم يسبق له نظير، ظهرت فيه قوة الإصلاح وعظمته وسلطانه على الأمة، كما برهن أيضاً على ضخامة العدد الذي أقبل على الحضور، والنشاط الفياض لشباب ندرومة في حفظ الأمن وتحقيق الراحة لكل الناس[50].

كما ساهم الندروميون في تأسيس عدد من المدارس الحرة بضواحي مدينة ندرومة كما كان الشأن في مدرسة الجبالة التابعة لمتزجة ندرومة، التي يترأس شعبة الجمعية بها المصلح العامل الطيب الضراريس «حيث قام المصلحون في كل من ندرومة والغزوات بشد أعضاد إخوانهم الجبليين ومد أيدي المساعدة المادية والأدبية لهم حتى يقع إكمال مشروع المسجد والمدرسة»[51]. وترأس افتتاحها الشيخ أمحمد أمصايف[52] كما ساهموا في تأسيس أخرى ببتمكسالت وقرية بوحلو. وللعلم فإن مدرسة الدراريس كانت تابعة لحزب الشعب. بينما مدرسة قرية بوحلو من عرش تامكسالت من أحواز صبره فقد كانت تابعة لجمعية العلماء.

ومن الأساتذة الذين درسوا بمدرسة ندرومة السادة: عبد الباقي بن الشيخ الحسين، وعبد الوهاب بن منصور وعبد الله الركيبي، والصالح الطامة ومحمد معطلة ومحمد بن يلس، والسنوسي دلاي ويخلف بوعناني والصالح ميمش، ورابح عيسوس ومحمد الزاوي وعلي عيساوي، والزهراء البوجاني وكريمة بن الحسين وفاطمة نورين وفاتحة بونخالة[53]، وعلى سبيل المثال فقد ضمت قائمة توزيع المعلمين للموسم الدراسي(1949-1950) كلا من (عبد الوهاب بن منصور مديراً- ومحمد جريدي ومحمد الصالح بوزغاية ومحمد بن يلس) [54]، كما ضمت القائمة ذاتها ولكن للموسم

الدراسي (1950-1951) كلا من: (عبد الوهاب بن منصور مديراً- وبركان الصديق وصالح بن مسعود الميلي- ومحمد يلس)[55].

وتميّزت فترة الخمسينات بظهور نشاط اجتماعي وسياسي وثقافي، فقامت الحركة الإصلاحية بدور فعّال في المساجد والمدرسة الحرّة وأحدثت يقظة وتوعية عن طريق التّدريس وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد وبث الرّوح الوطنية، وتوجيه الشعب توجيهاً عربياً إسلامياً ووطنيا كما قامت حركة جمعية العلماء بمحاربة الطّرقيّة والانحراف الدّيني فكان أن أحدثت ضجّة كبيرة لدى الطرقيين المتزمتين الذين أصبحوا من منبوذي المجتمع، حيث قامت حينها عداوة حادة بين الإصلاحيين والطرقيين، وكان مدير المدرسة الحرة الشيخ عبد الوهاب بن منصور، من الرواد الذين ساهموا في بعث اليقظة العربية الإسلامية عن طريق التّدريس في المدرسة والمسجد ، فبدأت الأذهان تنفتح والعقول تبحث عن غداء جديد في الفكر الإسلامي.

وفي شهر مارس 1956م أغلقت المدرسة[56]، رغم أن الأستاذ محمد الحسن فضلاء ذكر أن إغلاقها تم في شهر ماي 1956 وذكر أنها كانت الوحيدة التي لم يحتلها الجيش، رغم أن أغلب معلميها قد أُعتقلوا[57]، حيث أصدرت الجمعية بيانا صدر في 23 مارس 1956 أعلنت فيه إغلاق المدرسة هذا نصه: «أصدر عامل عمالة وهران أمره بإغلاق مدرسة ندرومة واعتقال معلميها، ولقد أهين المعلمون إهانات فضيعة أمام الجماهير وفتشت المدرسة وأخذ ما بها من الوثائق والأوراق ثم ختم على المدرسة بالشمع الأحمر، وقد سيق المعلمون إلى المحتشدات وهم الأساتذة الآتية أسماؤهم: محمد معطى الله، محمد الغربي، أحمد المرابط، منصور جاب الله، عبد الله الركيبي محمد الزواوي، يخلف البوعناني، الوسيني الجزائري، كما أبعد بعض وجهاء البلدة من بينهم السيد حمزة بن رحال البالغ من العمر 70 عاما»[58].

جـ/ طرق ومناهج التعليم الحر بمدرسة ندرومة: لقد ركز المصلحون في التعليم العربي نشاطهم على إبراز وتحقيق مقومات الشخصية القومية للجزائر عن طريق:

- نشر اللغة العربية على نطاق واسع بين الندروميين باعتبارها أهم المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية بواسطة المدرسة والمسجد والنوادي الحرة.

- إحياء الثقافة العربية ومحاولة بعثها في ثوب جديد يتلاءم مع تطورات العصر وذلك عن طريق توجيه الشباب إلى العناية بالتراث العربي الأدبي في أزهى عصوره.

- التركيز على الطابع الديني في العملية التعليمية، لأن سياسة الاحتلال كانت تعمل على القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية وهي اللغة والثقافة العربية والدين الإسلامي ومن هنا كانت العناية موجهة إلى إفساد هذه الخطة عن طريق التركيز على الثقافة العربية في جوانبها اللغوية.

وباختصار فقد عملت جهود المصلحين في التعليم العربي على تذكير الندروميين بماضي ثقافتهم القومية المجيد من ناحية، ومن ناحية أخرى أيقظت في نفوسهم روح المقاومة الصلبة ضد كل ما يمس العقيدة واللغة والشخصية القومية للجزائر بصفة عامة، وعموما فإن التعليم العربي الحر يتميز بأنه «تعليم ذو طابع ديني، ولغوي في الغالب، مع شيء من التاريخ والجغرافيا، والعلوم، والرياضيات»[59]، وهو عربي في لغته، قومي في مناهجه وفلسفته ووطني في أغراضه وأهدافه[60].

ففي دروس الوعظ والإرشاد مثلاً كان أسلوب الجمعية، هو طريقة السلف الصالح، تذكر بكتاب الله تشرحه وتستجلي عبره وبالصحيح من سنة رسول الله، تبينها وتنشرها، وبسيرته العملية تجلوها وتدل الناس على مواضع التأسي منها، ثم سير الصحابة وهديهم ثم سير حملة السنة النبوية ، وحملة الهدي المحمدي في أقوالهم، وأعمالهم[61]، وفي التعليم المدرسي، يعتبر أسلوب الجمعية في التعليم أحد أهم مفاخرها، فهي تعهد إلى الأساتذة الذين يعملون في سلك مدارسها بتلقين التلاميذ أبسط القواعد في أسهل التراكيب والإكثار من التمارين التطبيقية التي تساعد على الفهم والتركيز على العناية بالمعنى أكثر من اللفظ، والاجتهاد في تربية ملكة الذوق والاستنتاج في نفوسهم، ومحاولة إصلاح لهجات الحديث التي حرفتها العامية عن سبيلها العربي، وتقويم الألسن على الحروف العربية وهيئاتها ومخارجها حتى يستقيم نطق المتعلمين العربية[62].

وظهرت نتائج هذا الأسلوب في التعليم جلية في كل تلميذ قرأ في المدرسة ولو لفترة قصيرة، حيث استقامت الألسنة وصحت اللهجات، وبدأت ملكة الخطابة تنطبع لدى كثير من المتعلمين. وقد كان «هدف الجمعية من هذا الاهتمام بالتعليم العربي هو تكوين رجال يكونون بناة نهضة، ودعاة إسلام وجهاد ونضال، ووقوفا بالمرصاد للاستعمار الذي أقام سياسته على أساس محاربة مقوماتنا الروحية والثقافية حتى يسهل عليه أن يبتلعنا ويقضي على شخصيتنا قضاء مبرما»[63].

وفي عام 1947م قامت جمعية العلماء بتوحيد الامتحانات السنوية في جميع مدارسها وعلقت جريدة البصائر[64] على هذا الحدث الهام فقالت: «عممت جمعية العلماء الامتحانات السنوية لهذا العام في جميع مدارسها على ترتيب بديع، ونظام محكم، وبدأت الامتحانات في يوم واحد، وهو 25

جوان وانتهت في يوم واحد وهو يوم 12 جويلية 1947، ثم كان يوم 13 منه يوم احتفال بتوزيع الجوائز على الناجحين من تلاميذها فكانت هذه الاحتفالات في كثير من المدن مزدانة بأعضاء الجمعيات المحلية، وأعضاء شعب الجمعية، وآباء التلاميذ، وأنصار العلم والإصلاح، وكانت الأجواء كلها ابتهاجا بالعلم وتقديرا لرجال التعليم وفرحا بالجيل الزاحف للحياة السعيدة من أبناء الأمة»[65].

وبعد تعليق نتائج الامتحانات، تَعمِد الصحف التابعة للجمعية إلى نشرها حتى يطلع عليها الأولياء، وبقراءة عابرة لنتائج الامتحانات الخاصة بتلاميذ ندرومة نجدهم من المجدين والمميزين وعادة ما يحتلون المراتب الأولى بملاحظات جيدة. ففي امتحانات الدراسة الابتدائية العربية، وهي امتحانات لا يترشح لها إلا زبدة التلاميذ في المدرسة وزهرة الفصل ممن يُتحقق نجاحهم، جرت الامتحانات يوم الأحد 1952/9/14، وبالنسبة لعمالة وهران وحُدد مكان الامتحان في دار الحديث بتلمسان، بالنسبة لمدرسة ندرومة التي كانت من ضمن 8 مدارس تمثل عمالة وهران فقد رشحت لهذه الامتحانات 13 تلميذا 11 من البنون 2 من البنات وهذا من ضمن 108 تلميذ، حيث احتلت المرتبة الثانية في تعداد المترشحين للامتحان بعد تلمسان (71 تلميذ مقابل 9 لوهران- و1 مساعدة و7 لمعسكر و3 للحناية و3 لتيارت و1 لبني صاف).

وبعد التصفية الأولية شارك منهم 5 فقط 3 بنون وبنتان وفازوا كلهم بالشهادة شيء لم نجده حتى في مدرسة وهران (نجح واحد من ضمن 6) ومدرسة تلمسان (نجح 35 من ضمن 71)[66]، ونشرت البصائر أسماؤهم فكانوا كالآتي: (فضيلة بريكسي بملاحظة حسن- مصطفى الكتاب بملاحظة حسن- محمد عدون بملاحظة حسن- محمد عامر بدون ملاحظة- ليلى بريكسي بدون ملاحظة).

وفي دورة عام 1953 ترشح عن مدرسة ندرومة طالب واحد وهو الطالب أحمد عدون ونجح بدون ملاحظة[67]. غير أن أحسن مشاركة لمدرسة ندرومة كانت في موسم (1953-1954) حيث احتلت المرتبة الأولى من بين كل مدارس عمالة الغرب بفضل الطالبة فاطمة نورية التي حازت على المرتبة الأولى بملاحظة أحسن. وهذا من مجموع 50 مشارك على مستوى مركز تلمسان، ومن ضمن 41 فائزا حازت مدرسة ندرومة على الحظ الأوفر من الفائزين (13)، منهم 05 بملاحظة أحسن والباقي بملاحظة حسن. وقد نشرت جريدة البصائر[68] أسماء هؤلاء النجباء

الذين شرفوا مدينتهم وهم كالتالي: فاطمة نورية (الرتبة 1 بملاحظة أحسن)- الزهرة البوجاني (الرتبة 2 بملاحظة أحسن)- لطيفة الإبراهيمي(الرتبة 3 بملاحظة أحسن)- ليلى بوحفص (الرتبة 3 بملاحظة أحسن)- الزهور غزالي (الرتبة 5 بملاحظة أحسن)- عزيزة الدرار(الرتبة 9 بملاحظة حسن)- فتيحة بونخالة(الرتبة 13 بملاحظة حسن)- محمد بن هني(الرتبة 13- بملاحظة حسن)- كريمة بنت أبي مدين(الرتبة 16- بملاحظة حسن)- محمد البوري(الرتبة 16- بملاحظة حسن)- عمر بن محمد الفلاح(الرتبة 19-بملاحظة حسن)- ليلى البسام(الرتبة 19- بملاحظة حسن)- فاطمة غزالي(الرتبة 31-بملاحظة حسن).

وآخر امتحان للشهادة الابتدائية العربية بالنسبة لمدرسة ندرومة كان في الموسم 1954-1955، حيث شارك من المدرسة 9 تلاميذ فقط من ضمن 50 مشاركاً في مركز تلمسان وكان لأول في مدرسة ندرومة، التلميذة نفيسة بنت محمد الرمضان التي احتلت المرتبة 12 في الترتيب العام بملاحظة حسن. نفيسة بنت محمد الرمضان بملاحظة حسن- بدرة بنت محمد سلس بملاحظة حسن- كريمة بنت محمد غنيم بملاحظة حسن- خديجة بنت أحمد البحري بدون ملاحظة- عمارة ة بنت محمد الركاب بدون ملاحظة- عمارة بنت أبي مدين طكوك بدون ملاحظة- صالحة بنت محمد قريش بدون ملاحظة- فاطمة بنت محمد قريش بدون ملاحظة- رحمة بنت عبد القادر بدون ملاحظة[69].

والمميز في هذه الدورة أن الفائزين من مدرسة ندرومة كلهن بنات، وإن كانت الميزة المشتركة في كل نتائج امتحانات الشهادة الابتدائية هو غلبة العنصر الأنثوي. إن هذه الأجيال التي تعلمت في مدرسة التعليم العربي الحر بندرومة أصبحت فيما بعد من أشد الجزائريين إيماناً في العقيدة، وقوة الشخصية وحماسة في الوطنية، وصلابة في مقاومة الاحتلال، من أجل تحرير الجزائر في ظل حضارتها العربية الإسلامية، وهو ما تحقق في ثورة الفاتح من نوفمبر سنة 1954م في ظل عروبة الجزائر وإسلامها ومقوماتها الشخصية.

الهوامش:

1- البصائر، ع 144، الجزائر: 1938/12/16م.--- 2- الادريسي نزهة المشتاق في اختراق الأفاق: ليد، 1866، ص ص172-209.

3- للتوسع طالع:

- Grand Guillum(Guilbert), Nedroma L'évolution d'une médina, E.J.Brill, 1976, P60.
- Grand Guillum(Guilbert), « une médina de l'ouest Algérien Nedroma », In Revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée, n°10, 1971, P55.
- Léon l'Africain : description de l'Afrique d'ouron schepler .T3 . Paris: 1898
4- Marmol : description général d'Alger: traduction de l'écrit d'Ablancourt, T3- Paris 1867

- راجع أيضاً: -مارمول، إفريقيا، تح. محمد حجي، الرباط: 1986، ج2، ص296.

5- Shaw : voyage de la région d'Alger : traduction mac arty – PARIS. 1830

6-Canal: Monographie, d'arrondissement à Tlemcen, Bulletin de la société d'archéologie ; et de géographie d'Oran 1888, T: 8. P-P (64-65).

7-Bassé René : Nédroma et le traras- Paris – 1901-P.P(1-6)

8-Bel Alfred : Encyclopedis de l'Islam Tome

9-Piesse lowis : Itinéraire Historique et descriptif : l'Algérie com prénom le Tell et le sahara –Hachette. Paris: 1862, P.P(271-272)

10- ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم. بيروت، ج6 ، ص.ص 126- 267

11- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، الجزائر: دار عالم المعرفة للنشر،الجزائر، 2009، ص306- للتوسع يراجع: - لقبال موسى: مظاهر اليقظة الفكرية في ندرومة وضواحيها التيارات والإسهامات، الملتقى الوطني الرابع حول تاريخ ندرومة أعلام – أقطاب – وشخصيات من ندرومة ونواحيها 2003- عثمان الكعاك، تلمسان ونشأة الدولة الموحدية، الأصالة، ع26، الجزائر، ص ص(120-123)- بوعزيز يحي، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص ص(177-178).

12-"يوم ندرومة الأغر"، البصائر، ع279. الجزائر: الجمعة 16 جويلية 1954، ص8.--- 13-البصائر، ع 144، الجزائر، 1938/12/16.

14-أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983، ج1، ص 305.

15-زرهوني(الطاهر)، "ندرومة بين الماضي والحاضر"، مجلة الثقافة، ع99، الجزائر، 1987م، ص 167.

16-نفسه، ص 169.--- 17-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار البصائر، الجزائر، 2005م، ج2، ص 178.

18-Gouvernement Général de l'Algérie, L'exode de Tlemcen en 1911, Beaugenay, Imp.Réné Barruléen, 1914.

19-A.O.M.9H ;104(62) Note de Service de Sécurité, Rapport du 30/12/1911.- Agéron(Ch.R), « Si M'Hammed Ben Rehal, une conscience inquiète dans une Algérie On Mutation » , In. Les Africains, T8, Jeune Africain, 1977 , P322.- Djeglloul (Abdelkader), Huit Etude sur l'Algérie, S.D. Alger : E.N.A.L, 1986, P37

20-Djeglloul (Abdelkader), Huit Etude sur l'Algérie, S.D. Alger : E.N.A.L, 1986, P37.- Béchaud(ed), « La population de l'Oranie d'après le dénoms Rement de 1911, In Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran. T33, Année 36, 3 Trimestre, sep.1913, P372.

21-Malebary(Ernest), « Chronique Algérienne Nedroma », In Revue Algérienne et Tunisienne littéraire et Artistique, n°1, 4, 11 Avril, 1891, P6.

22-الأصالة، ع14، السنة الثالثة، عام 1973.

23-فضلاء (محمد الحسن)، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، دار الأمة، الجزائر: 1999م، ج3، ص 73.

24-البصائر، ع 279، الجزائر، 1954/07/16، ص 08.--- 25-فضلاء، المسيرة الرائدة، ج3، ص 73.

26-البصائر، الأعداد التالية:(ع121، 29ماي 1950)،ع156، 21 ماي 1951)(ع190، 19 ماي 1952)(ع228، 8ماي 1953)(ع269، 30 أفريل 1954)(ع 314، 15 أفريل 1955).--- 27-البصائر، ع 207، الجزائر: 1952/11/17، ص 07.

28-البصائر، ع 282، الجزائر: 27 أوت 1954م.--- 29-البصائر، ع283، الجزائر: 1954./9/3.

30-البصائر، ع73، الجزائر: 28 مارس 1949.--- 31-البصائر، ع 105، الجزائر: 1950/1/30، ص 8.

32-البصائر، ع 225، الجزائر: 1953/4/10.--- 33-البصائر، ع 246، الجزائر: 1954/3/26.

34-البصائر، ع 303، الجزائر: 1955/1/28.--- 35-البصائر، ع90، الجزائر:1949/09/05، ص 18.

36-البصائر، ع137، الجزائر:1951/01/15، ص 3. --- 37-نفسه، ص 19.

38-البصائر، ع302، الجزائر:1955/1/21، ص 2.--- 39-البصائر، ع279، الجزائر:1954/7/16.

40-البصائر، ع92، الجزائر:1949/10/17.--- 41-ألفريد بيل، ندرومة العاصمة الإسلامية للطوارة في S.G.A.A.N، 1934، (515-516)- --

42-سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ج3، ص123

43-Grand Guillum, Nedroma, p134.

44-كوليت وفرانسيس جانسون، الجزائر الثائرة، تر. علوي الشريف وآخرون، مصر: وزارة الإرشاد القومي، 1957، ص 130.

45-محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة، ج3، ص 73.--- 46-البصائر، ع279، الجزائر: 1954./7/16

47-البصائر،ع 92 ، الجزائر: 1949/10/17م.ص3--- 48-محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة،ج3،ص74.

49-البصائر، ع 279 ، الجزائر: 1954/7/16م.--- 50-محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة،ج3،ص75.

50-وقد سبق ذلك توجيه دعوة عامة على صفحات جريدة البصائر بعنوان افتتاح مسجد ومدرسة ندرومة الجديدين، راجع: البصائر، ع272- 1954/5/21 – ع273 1954/5/28.--- 51-محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة،ج3،ص75.

52-البصائر، ع 279 ، الجزائر: 1954/7/16م.، ص9.--- 53-البصائر، ع 107 ، الجزائر: 1952/7/17م.، ص7.
54-يوم الشهيد في الضراريس ، جريدة المنار، السلسلة الثالثة ، ع 47 ،الجزائر: 28 ذو القعدة 1372ه الموافق 6 أوت 1953م
55-محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة، ج3، ص76.--- 56-البصائر، ع 93 ، الجزائر: 1949/10/31م، ص15.
57-البصائر، ع 135 ، الجزائر: 1950/12/18م، ص2.--- 58-البصائر، ع 359 ، الجزائر: 1956/3/23م، ص1.
59-محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة، ج3، ص76.--- 60-البصائر، ع 359 ، الجزائر: 1956/3/23م، ص1.
61-تركي رابح، ابن باديس، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1970، ص305.
62-تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1981، ص254.
63-الإبراهيمي (محمد البشير)، سجل (ج.ع.م.ج)، دار الكتب، الجزائر: 1982م، ص ص(57-58).--- 64-نفسه، ص58.
65-باعزيز بن عمر، ابن باديس المربي الكبير، مجلة لمحات، ع3، الجزائر: 1969، ص18.--- 66-البصائر، ع4، الجزائر: 1947/8/29.
67-نفسه، ص7.--- 68-البصائر، ع202، الجزائر: 1956/9/29، ص2.